مطلقاً اني من عائلة (أحمد) المتهم – وهل تظن أيها العزيز اني قادرة على تحريض أحمد – هذا الاهبل – ان يعمل أمرا شنيعا كالذي فعل ، هل أحرضه على ان يقتل زوجي والد ولدي ، اني أقسم لك بان مثل هذا الامر ماخطر بفكري قط ، ارحمني يافؤادي اشفق علي وسامح جاريتك اذ لايمكنني ان أعيش دونك . ان غاية ما كنت أتمناه لك من صميم فؤادي الصحة ولله الحمد قد رجعت لحبيبي فؤاد . والآن اقبل قدميك وابق في ظلك واسمح لي فقط باللقاء ولو مرة واحدة وأموت بعدها (شويكار)

الجيوش الغربية المعنوية (*)

« في الفتوحات الشرقية »

الغرض من الفتوح والاستعمار تكثير المال وتنمية الثروة ، والثروة أو المال مبدأ الاعمال المدنية وغايتها ، وبه تتألف مقدمات العمران وتحصل نتيجتها ، وللعالم الغربيون ان الحروب تتلف الثروة وقد يستوي في خسائرها الغالب والمغلوب عمدوا الى الفتوح من طريق الكسب والتغلب على الامم بالقبض على أزمة معايشها ، وامتلاك نواصي مكاسبها ، ثم بتقطيع روابطها ، وابطال الجوامع التي تضمها وتجمعها ، الى أن يقضي التفرق على الامة بقضائه الذي رددناه مراراً وبمثل هذا التفرق يتسنى للعدد القليل الاستيلاء على شعب كبير وأمة عظيمة ، يصرف الرجل الواحد من الغالبين الاثابي والجوع ويسوقهم حيث شاء ، كما يسوق الراعي الابل والشاء ، وقد يتراءى

(*) فاتحة العدد السابع عشر الذي صدر في ٢٣ صفر سنة ١٣١٦

للغافل، ويخيل للغر الجاهل، ان حقيقة هذا الامر كما يعطيه ظاهره: تصريف واحد لذوات، وسوق فرد لجماعات، وذلك غير صحيح بل هو مخالف لطبيعة الوجود. ومن نفذت أشعة بصره من ظواهر الاشياء لبواطنها رأى ان ذلك الفرد في الحقيقة جمع والواحد في نفس الامر أمة وان تلك الاثابي والجموع أفراد لا رابطة تربطهم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى. ذلك بانهم قوم لا يفقهون معنى القومية والامية فاجتماعهم وتفرقهم سواء، أما كون هذه الجموع ليست أمة فهو مما لا اخفاء فيه كما ترى، اذا أمين أحدهم بل اذا سحقت عظامه بايدي الغرباء يقولون هذا بعض ما يستحق من الجزاء، وأما كون تلك الآحاد التي يدير كل واحد منها شؤون جماعة أمماً فمعناه ان أحدهم يدير الجماعة باسم أمته وبقوتها وان أمته كلها معضدة له في عمله وعمدة له بقوتها ونفوذها بحيث تعز لعزته وتذل لذلته فلو هضم جانبه او غمط حقه تشعر الامة كلها بنفس الالم الذي شعر به وتهب كلها لازالته كما هو شأن الامم الغربية في هذه الايام: بهان أوربي في أقصى المعمور فتسمع الصياح والصراخ يدوي له فضاء أوربا والجرائد تنشر الفصول الطوال تقول قد أهينت الدولة والامة فأجمعوا كيدكم وألزموا الدولة التي أهانه أهلها بالترضية إما منا بولاية من تلك البلاد وأما فداء بمبلغ عظيم من المال

بقي علينا البحث في هذا الفتوح المعنوي وبيان القوى التي تسلطها الامم العاملة على الجاهلة فتقطع روابطها والجيوش التي تحشرها وتسوقها لهدم جوانبها مع سلامة أفرادها وبقاء آحادها وكيف تفتقر الامم وتدمر الممالك بهذه الجيوش المعنوية التي يقودها جماعة من أهل الوداعة والسكينة

ومعنى الامن والسلام وهو بحث طويل الذيل نأتي منه على اجمال ينبيء عن تفصيل فنقول

علم الاوربيون بما أفادهم البحث في طبائع الامم ان الترف مدماة الدمار والفناء الاجتماعي اذا لم يقرن بتربية صحيحة تقي من أدوائه، وتعصم من بلائه، وعلموا بالاختبار ان الشرق فقدت منه التربية وانفصمت عرى الوحدة التي كانت لامته ودوله، ولم يبق لهم من روابط الاجتماع الا بقايا موروثة لا متعهد لها ولا حافظ فيكفي لتقطيعها جذبة لطيفة من جذبات الترف، فكرّوا على الشرق بجنود منه لا قبل لاهله بها وحملوه أوزاراً أثقل من الجبال فحملها وكان الشرق ظلوماً جهولاً

ساقوا عليه خمسة فيالق وهي الخمر والميسر والربا والبغاء والتجارة فسفوا بذلك ثروته، وقتلوا غيرته، واضعفوا همته، وأفسدوا ما كان من بقايا أدب ودين، فتكت هذه الفيالق بالجحافل في الامم الشرقية فتكا ذريعاً وبلغت نكايتها ومضرتها في هذه البلاد مالم تبلغه في غيرها ولو شئنا الشرح والتفصيل عن كل فيلق من تلك الفيالق وما كان عنه من السلب والنهب والخراب والتدمير لاحتجنا الى تصنيف الاسفار والدواوين ولكننا نجمل في القول على ماشرطنا

(الخمر) أم الخبائث وداعية الفجور وموقظة الفتن وآفة الثروة ومولدة الامراض ومقصرة الآجال فضررها في الجسم والعقل وافسادها للدنيا والدين مما لا يجهله أحد وانما يدمنها الفساق تغليبا للذة على المصلحة، وترجيحا للشهوة على المنفعة. ان مضرات السكر في هذا العصر تربي على مضرته في العصور السالفة التي لدن الانبياء فيها السكارى وسجلوا

عليهم الخزمان من ملكوت السماء، فان الاشربة الروحية التي اخترعها الافرنج في هذا العصر هي أشد اتلافا للجسم والعقل والمال

اجتمعت في أواخر سنة ١٣٩٠ بالدكتور فانديك الشهير في بيروت وتذاكرنا في تقدم سوريا وبيروت وتأخرها لاسيما من جهة الادب والتهذيب فقال أنا أعرف بيروت من نحو ثلاثين سنة وليس فيها الا بعض حانات قليلة (نسيت العدد الذي عينه ولا أراه يبلغ عدد الانامل) يباع فيها خمر البلاد وأما الآن فيوجد في بيروت عشرات من الحانات ويليها تبيع من خمر البلاد القليل ضرره المحدود خطره، وانما هي ملأى بهذه السموم الافرنجية التي يسمونها الاشربة الروحية، ... وقد اتفقنا في المذاكرة على ان هذه السموم ممتة للآداب والفضائل، وموت الآداب والفضائل، موت الشعوب والقبائل،

ان مصر تفوق بيروت في هذه الرذيلة بل تفوق جميع البلاد تجول في شوارع القاهرة وأسواقها فلا يغيب عن نظرك مرأى الحانات دقيقة واحدة حتى يخيل للعاقل ان هذه الحانات تزيد على حاجة السكارى ولو كانوا كلهم من السكارى وانها تمثل لعيني ناظرها كأنها ثكنات عساكرها القوارير المصفوفة المرتبة ترتيب الجنود المنظمة ونوادلها القيد والقادات من اليونان والطليان وسائر أصناف الافرنج. كلا ان القوارير أكثر للارواح انتهابا، وللاموال استلابا، فربما ينفق المصريون في يوم واحد على الخمور أكثر مما انفقته الحكومة في حرب السودان من بدايتها الى الآن فقد بلغنا ان من أمرائهم ومترفيهم من ينفق في الليلة الواحدة المئات والمئات من الجنيهات على مقارعة الراح، ومنادمة الصباح، ويوشك أن

يمتص من الزجاجة مصة ثم يلقيها جانبا ويطلب أخرى، يرى القدم (البليه الاحمق) ان الشرف في معالجة المقدمات (الدنان والابارين) ومجالسة الجالسات (المجالسة المرأة التي تتبرج وتترك الحياء والمجالسة المطلوبة بالنهش اوالتنازع في شراب أو قمار) لبئس ما سوّلت لهم انفسهم أن سخط الله عليهم فانفقوا أموالهم على تخريب بيوتهم واتلاف أنفسهم وتسليم بلادهم للاجانب، لااعني انهم سلموهم أزمة سياستها بل أريد رقبتها وجلتها

(الميسر) فشا القمار في البلاد الشرقية فشواً خرب دوراً وقوض صرحا وقصوراً، واسى اكثر مزاوليه قوما بوراً. ولقد كان لاهل هذه الديار منه اوفر السهام واقتلها. سرت عدواه من الرجال الى النساء كما سرت عدوى سائر الموبقات لاسيما في الامراء واهل الطبقات الدنيوية العالية ذلك ان الرجال يجاهرون فيما يجترحونه من السيئات وهم قدوة النساء وأسوتهم فيقلدنهم بجميع ما يفعلون فكيف حال الابناء والبنات الذين يتولدون من هذه الاصول الخبيثة ويتربون في احضانهم النجسة . الا ان حالة البلاد مظلمة ومستقبلها احلك ظلاماً واعظم خطراً ان لم تدارك بتربية دينية شريفة.

كان من شأن النساء ان تحفظ المال وتدير شؤون العائلة على عهد الاقتصاد وتدع الاعمال العامة مالية وغير مالية للرجال لكن نساء كبرائنا شين عن الطوق وتشبثن باذيال من التمدن الاوربي مسحوبة على ارض قذرة تجر من تعلق بها عليها حتى يكون عبرة للناظرين ان في المدنية الاوربية من المحاسن والفضائل ماهو اجدر باقتباس سيدات بلادنا له لا سيما ماهو اليق بهن واسس بوظيفتهن كتربية الاولاد وتدبير

المنزل والاقتصاد فيما بالمن فضان الخمر والميسر واختزن ما يشقي على ما يسعد واستبدلن الذي هو ادنى بالذي هو خير؟ أما كفاهن ما يقترفه رجالهن الاشرار، ويجترحه اولادهن الاغرار، من الاسراف والتبذير الذي ينتهي بالعائلات بل وبالبلاد الى شر مصير

(البقاء) وما ادراك ما هو !! ارتياد الفاحشة الكبرى وتطلب النتيجة السوءى من جماعة من النساء يستعددن لذلك ويتجاهرن به . الزنا مولد الادواء المشوهة القاتلة ومقلل النسل ومضيع الانساب ومتلف الاموال ومفسد نظام العائلات وان المجاهرة به مدعاة لتعميمه وتعميمه فتنة في الارض وفساد كبير وبلاء على الامم وويل . فشا في الامة الفرنسوية وهي منيرة العلم على اوربا وقدوتها في التربية العملية التي بها قوام المدنية فصدمها صدمة وقفت بنموها وقللت رجالها فقد كان متوسط المواليد فيها اوائل هذا القرن ٣٢ في الالف فهبط في بعض بلادهم الى ١٤ وفي بعضها الى ٢٢ في الالف ولقد كان سكان اوربا يومئذ نحو مائة مليون ربعهم من الفرنسويين فزادت روسيا في مدة القرن خمسة اضعاف وبريطانيا اربعة اضعاف وروسيا ثلاثة اضعاف وفرنسا ضعفا واحداً واصبح اهل فرنسا عشر اهل اوربا . وسبب ذلك الاكبر فشو الزنا فيهم وساستهم الآن في حيرة من تلافيه

هذا وان لهذه المصيبة من الضرر المالي في مثل هذه البلاد مالا نظير له في فرنسا وذلك لان معظم المال الذي ينفق على الفحش هنا انما ينتصه الاجانب من ثروة البلاد لان معظم المسافات وذوات الاخدان فيها من الافرنج لا سيما صواحب الامراء والوجهاء اللواتي يفاض عليهن المال

جزافا بلا عد ولا كيل وبهذا المعنى نعد البغايا والمومسات من الجند الفاتح للبلاد فانهن ماتزلن في حراص قوام الامهدن لابناء جنسين فيها المقام وأورثنهم أرضهم وديارهم وأموالهم وشاهد ذلك بين يدينا وتحت مواقع أبصارنا، فعلى من ابتلي بذلك ان يقلع حفظا لدينه ودنياه وان كان استحوذ عليه الشيطان وملك عليه أمره فليستتر لاسيما عن أهله وبنيه لئلا يجني عليهم فيفسدهم كما فسد هو ويضيع الامل من مستقبل البلاد بهم وليحجبهم ويمنعهم من قرناء السوء أمثاله ولا يأمن عليهم الخدم فانهم في الغالب على دينه ومشربه الخبيث ولقد بلغنا ان هؤلاء الخدم يفشون مواخير المومسات ومعهم الاولاد الصغار الذين عهد اليهم بخدمتهم فيتربون على مشاهدة الفاحشة وبئست التربية «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا»

(الربا) هو الافة المجتاحة للثمار، المخربة للديار، التي جعلت الاغنياء فقراء والاعزاء اذلاء، هو الذي مكن للاوربيين في أرض مصر (كغيرها من ممالك الشرق) فاستولى داثوهم على صفاصفها (أرضها السهلة المستوية) واثباجها (ترعها) وساستهم على أتاوتها وخراجها، ثم على سائر دوائر الادارات حتى أوشكت تكون بلادا أوربية حاكما وحكوما. ضغط الربا على جثمان هذه البلاد وبيدا وبيدا حتى اشتبكت الاضلاع بالاضلاع واختلط اللحم بالعظم وماشعرت حكومتها بضغط ولا أحست أفرادها بألم حتى عض الضغط كلا من الحاكم والمحكوم، ما أكل الربا اضعافا مضاعفة في بلاد كهذه البلاد وما أضر بقوم كما أضر بأهلها، ظلم حكامها رعيتهم فالجأوهم الى الاستدانة بالربا الفاحش ومن ظلم رعيته كان لنفسه أظلم «فأخذهم الله بذنوبهم وما

كان لهم من الله من واق * وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد»

(التجارة) لقد علم الاوربيون ان حرب الدراهم والدنانير أنجح من حرب المدافع والبوارج، وقد امتلكوا بهذه الحروب الذهبية والفضية أكثر بلاد الشرق فالانكليز ما استولوا على ممالك الهند بتكتيب الكتائب، وسوق الاساطيل بالبوارج والجحافل، وانما هي جمعية تجارية وطئت المسالك ومهدت السبل تظلها السلطة ويؤيدها النفوذ اللذان يقيمان حيث تقيم، وكذلك كان شأن شركة النيجر في احشاء افريقية. واليوم ينعم الانكليز على الحكومة المصرية بثلاثمائة الف جنيه ونيف لافتتاح السودان وتصرح وزارتهم بان الانصاف يقضي عليهم بمساعدة مصر بالانفاق على فتح السودان لانها شريكتها بفوائده التجارية ومعناه لان تستأثر بالتجارة وتختص دون اوربا بهذا الفتوح المنوي الذي يتبعه الملك اسما ومعنى كما هو المعهود في الهند والنيجر وغيرهما ومعلوم ان الحكومة المصرية لا تجارة لها وبهذا يحتج عليها المحتلون في اجبارها على بيع سكك حديد السودان بعد الفتح. يقولون ان فاتحتها العسكرية تنتهي بالفتح والحكومة المصرية لا تجارة لها ولا يليق بها التجارة فمن المصلحة أن تباع هذه السكك لشركة تجارية ويرجح الانكليز على سائر الاجانب بما أنفقوا من أموالهم وما أزهقوا من رجالهم والحمد لله لا شركات وطنية لنا فنقول انها ترجح وتقدم حتى على الانكليز

ابتاع اخوان من الفلاحين عدة من الدجاج «الفراخ» لاجل تربيتها والانتفاع ببيضها وكان احدهما ذكيا والآخر بليدا مغفلا فقال الذكي

للبليد تمال تقتسم واتفقا في القسمة على أن تكون الدجاجات للبليد وبيوضها لاخيه فكان هو يتعاهدها بالاكل والشرب والمبيت وينفق عليها ويخلي بين أخيه وبين بيوضها يبيعها ويأكل منها ماشاء وصار الاخوان مثلاً في بلدها في تلك القسمة الغريزي. كذلك شأن الانكليز مع الحكومة المصرية في السودان وشأن سائر الاوربيين في فتوحاتهم المعنوية يقنعون بامتلاك المنافع وثمرات البلاد ويدعون الاسم لاهلها ولكن الى أجل مسمى حتى اذا ماجاء الاجل يصرحون بالامتلاك الاسمي ايضاً. كل هذا والشرقيون وادعون ساكنون واذا تحركوا فانما تكون حركتهم ميلا مع ريح الاجانب انخداعا لهاو رهبة منها لاندهاشهم بعظمتها التي ماجاءتها الا من الشركات المالية وهي أيسر شيء عليهم لاسيما قبل تمكن الاجانب من بلادهم. او أن للشرقيين عقولا ذكية وتربية وطنية لما رضوا أن تكون بلادهم بينهم وبين الاجانب كالدجاجات بين ذينك الاخوين «فكيف والامر أعظم من ذلك» ولقاوموا جنود التجارة الفاتحة أشد المقاومة.

اندفع الغرب على الشرق بخميس من الازياء وكتائب من الحلي وجحافل من الماعون النفيس وفيالق من الملابس فعجز هذه الجنود المجندة من الشرق أقل مقاومة ولا أدنى مدافعة فطفقت تلك في النفوس بعوامل الترف وفي الاموال بعوامل السرف وما زال القوم يمدون هذه العوامل من علائم الشرف حتى وقفت بهم على شفا جرف وأكبتهم على مناخرهم في مهاوي التلف

لا ننكر ان من هذه الجنود ما لا بد لنا بدفعه الآن كالضروري من الادوات والماعون والنسيج وكلامنا انما هو في الزخارف الكمالية

كالحلي وما عون الزينة ومادة الترف من الاشربة وغيرها فهذه هي التي تسفّ ثروة البلاد وترميها بالفقر والعجز . فرب ملك أو أمير (برنس) ينفق على الترف والبذخ ما يكفي لانشاء مدارس أو معامل يحيي بها صقع من الاصقاع أو أقليم من الاقاليم (كمديرية أو متصرفية) . يتنافس الأمراء وسائر أهل الثراء بتقليد الافرنج في كل طراز وانما يتنافسون في خراب بلادهم فان تطرّز الافرنج وتورّهم وتأنقهم في الترف كل ذلك يزيد في احياء صنائعهم ونموّها وكمالها ولا تحول به اثباج ثروتهم ومجاريها الى غير بلادهم بل تبقى دائرة فيها ومع ذلك يتحامون الاسراف في الترف ويسيرون فيه على أصول التدبير والاقتصاد فلا ينغمسون فيه كما رأينا الفرنساوي يتهي بالغرق ويتلافون مضراته الروحية والجسدية من ضعف الابدان وقعود الهمم عن الاعمال العظيمة بالتربية الصحيحة التي رأينا من آثارها ان ابناء الملوك والوزراء يزاولون الاعمال العسكرية والمدنية بأيديهم سواء كان ذلك في البر أو البحر بل رأينا ان الجنس اللطيف آب (تهيأ) لمساهمة الجنس النشيط في الاعمال الشاقة حتى طلب بعضهن الانتظام في سلك الجندية والقيام بالاعمال الحربية وهذا هو معنى قولنا في أوائل هذه المقالة ان الترف مدخاة الدمار والفناء الاجتماعي اذا لم يقرن بتربية صحيحة تقي من أدوائه وتعصم من بلائه . فعسى ان يتنبه الشرقيون لما ذكرنا فيحترزون من مضار الترف وتقليد الافرنج بما يعود عليهم وعلى بلادهم بالدمار ويجتهدون بتربية أولادهم تربية دينية وطنية لعلهم يستردون ما فقدوا ويسترجعون ما سلبوا وما ذلك على الله بعزيز